

الأماكن والمعالم الجنائزية الرومانية في مادوروس

قراءة أنثروبولوجية في الممارسات الدفنية والهويات الاجتماعية

Roman Funerary Places and Monuments in Madauros: An Anthropological Reading of Burial Practices and Social Identities

ط/د جمال عبد المالك¹، أ.د. شبة بذاك²

¹ جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، djamel.abdelmalek@ummto.dz

² جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، chabha.beddek@ummto.dz

تاريخ الاستقبال: 2025/07/14؛ تاريخ القبول: 2025/11/13؛ تاريخ النشر: 2026/03/05

ملخص: كشفت المعالم الجنائزية بمدينة مادور عن ثراء معماري ورمزي يعكس تعقيدات الحياة الدينية والاجتماعية في المجتمع الروماني بشمال إفريقيا. تم العثور على 277 نصبًا جنائزيًا، معظمها ذات قمم حادة، ويتراوح ارتفاعها بين 1.50 متر و2 متر. تضمنت هذه الأنصاب إهداءات لأرواح الآلهة، تلتها نصوص جنائزية، وزُخرفت برموز دينية وفلكية كالهلال، قرص الشمس، الزهيرات، الأكاليل، والعناصر النباتية. بينما كانت صور الأشخاص نادرة الظهور. من بين أبرز هذه الأنصاب، تلك المخصصة للإله ماركوريوس الإفريقي، الذي ورد ذكره بشكل متكرر في النقوش، ما يدل على مكانته البارزة في المستعمرة. هذا الحضور المتكرر يعكس تداخلًا دينيًا وثقافيًا بين العقائد الرومانية والتقاليد المحلية. تؤكد هذه المعالم الجنائزية أهميتها كمصدر أساسي لفهم الهوية الرمزية والدينية والاجتماعية لسكان مادور خلال الحقبة الرومانية.

الكلمات المفتاح: المعالم الجنائزية؛ مادور؛ الأنصاب الرومانية؛ الرموز الدينية؛ الحياة الاجتماعية.

Abstract: The funerary monuments in the city of Madauros reveal an architectural and symbolic richness that reflects the complexity of religious and social life in Roman North Africa. A total of 277 funerary stelae were discovered, most with pointed tops and heights ranging between 1.50 and 2 meters. These stelae featured dedications to the souls of deities, followed by funerary inscriptions, and were decorated with religious and astral symbols such as crescents, sun disks, rosettes, garlands, and other vegetal motifs. Human depictions were rare. Among the most significant finds were stelae dedicated to the African god Mercurius, who appeared frequently in inscriptions, indicating his prominent status within the colony. This recurring presence illustrates a religious and cultural interaction between Roman beliefs and local traditions.

These funerary monuments serve as a key source for understanding the symbolic, religious, and social identity of Madauros' inhabitants during the Roman period.

Keywords: Funerary monuments; Madauros; Roman stelae; religious symbols; social life.

مقدمة:

يُعدّ البحث في المعالم الجنائزية التي تعود للفترة الرومانية في الجزائر مجالاً غنياً ومهماً لفهم تاريخ الفئات الاجتماعية القديمة وأنماط حياتها اليومية. هذه المعالم ليست مجرد آثار صامتة، بل هي شواهد مادية تعبّر عن ممارسات دفن الموتى، العقائد الجنائزية، والتراتبية الاجتماعية التي عرفتتها المجتمعات القديمة، مما يربطها ارتباطاً مباشراً بالأنثروبولوجيا التاريخية.

تنوع هذه المعالم وانتشارها عبر مناطق واسعة من الشمال الجزائري يعكس مدى تمركز الاستيطان الروماني بشمال إفريقيا. وقد تنوعت الأشكال الجنائزية من صناديق حجرية بسيطة إلى أضرحة فخمة ذات تصميم معماري معقّد، ما يدل على تباين طبقي وثقافي بين سكان تلك الحقبة.

تُعدّ الجزائر من بين أغنى مناطق شمال إفريقيا بهذه المعالم، خاصة ضمن حدود ما كان يُعرف بالمقاطعة البروقنصلية. لكن رغم هذا الغنى، ما تزال معظم المواقع تفتقر إلى التنقيبات الأثرية المنهجية، إذ اقتصرَت الأبحاث السابقة على أوصاف عامة وملاحظات سطحية، ما يجعل من الصعب اليوم تكوين صورة متكاملة عن المعمار الجنائزي في هذه الفضاءات.

من بين المدن الرومانية التي استوقفت الباحثين نجد مستعمرة مادوروس، التي تُعدّ من أهم المدن الأثرية في الجزائر. وتكمن أهميتها في كثافة وتنوع المعالم الجنائزية المكتشفة بها، حسب ما أظهرته أعمال الحفر والدراسات السابقة. فقد وُجد في محيط مادوروس عدد كبير من النماذج الجنائزية التي تُشبه تلك المنتشرة في بقية مستعمرات المقاطعات الإفريقية أثناء الفترة الرومانية، مما يعكس تفاعلاً ثقافياً واسعاً بين هذه المدن.

لكن للأسف، تعرضت أغلب هذه المعالم لعمليات تدمير ونهب، ولم يتبقّ منها إلا القليل وفي حالة سيئة. النقوش والزخارف التي كانت تزينها تآكلت بفعل العوامل الطبيعية والتخريب البشري، وهو ما يشكل عائقاً أمام إعادة قراءة هذه المعالم بشكل دقيق.

من أبرز المقابر التي احتضنت هذه المعالم نذكر المقبرة الغربية، المعروفة محلياً باسم "كدية ذراع الدواميس"، والمقبرة الجنوبية "كدية الغيران". هذه التسمية تعكس الذاكرة الجماعية للسكان المحليين الذين ظلوا يطلقون أسماء ترتبط بالمدفن الجوفية والمغارات الموجودة في المكان.

يرى الباحث قزال أن هذه المدافن الجوفية ترجع في أصلها إلى تقاليد فينيقية، تم تبنيها في الفترة النوميدية ثم واصل الرومان استعمالها بعد ذلك. ويظهر هذا التداخل في الممارسات الدفنية مدى التفاعل الثقافي بين الحضارات التي تعاقبت على المنطقة، وهي نقطة مهمة في الدراسة الأنثروبولوجية للموت والدفن.

من خلال القطع الأثرية التي عُثِر عليها داخل المدافن، خاصة المصابيح والجرار، تم تأريخ هذه المعالم إلى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد. كما أشار قزال إلى تعرّض العديد من هذه الغرف الجنائزية للنهب، خاصة تلك الواقعة في الجنوب الشرقي من كدية ذراع الدواميس، حيث وُجدت قبور تحمل سقفاً مائلاً على شكل مثلث مبني بالقرميد، وهي خاصية معمارية تلفت الانتباه.

الطرح الذي يفرض نفسه هنا هو: ما هي المعالم الجنائزية التي استُخدمت لتحديد هذه المدافن؟ وهل يمكن ربط أنواعها وتوزيعها بالتحوّلات الاجتماعية والدينية التي عرفتتها مادوروس في ظل الهيمنة الرومانية؟

هذا السؤال يقودنا إلى ضرورة الجمع بين المقاربة الأثرية والأنثروبولوجية، من أجل فهم أعمق لمغزى هذه المعالم ودلالاتها داخل نسيج المجتمع القديم.

1. أصل التسمية:

لا يزال أصل كلمة "مادوروس" (Madauros) ومصدرها مجهولين، إذ لا توجد معطيات دقيقة حول دلالة هذا الاسم أو أصوله لدى الفينيقيين الذين يُعتقد أنهم أسسوا المدينة. ورغم تعاقب الفترات التاريخية وتعدد الحضارات التي مرّت بها، حافظ اسم مادوروس على شكله الأصلي دون تغيير يُذكر. وقد استُخدم هذا الاسم خلال الفترة الرومانية أيضاً، مع تسجيل تحويل بسيط في الصيغة اللغوية إلى "مادوريس" (Madauris)، وهو تعديل شكلي جاء لأغراض الاختصار دون المساس بجوهر التسمية الأصلية (St. Gsell et Joly, 1902, P06; Charles Albert).

أطلق الرومان اسم "مادوروس" على المستعمرة التي أنشئوها في المنطقة خلال أواخر القرن الأول الميلادي، ويتجلى ذلك من خلال النقوش الأثرية العديدة المكتشفة في الموقع. وقد ورد ذكر المدينة بهذه التسمية عند الجغرافي بطليموس (Ptolémée)، كما أشار إليها القديس أغسطينوس في كتاباته بصيغة "مادوريس" (Madauris) (A. Robert; 1899, P225).

أطلق اسم المستعمرة الرومانية على المدينة الحديثة مع تحويل بسيط في النطق، فأصبحت تُعرف باسم "مداوروش"، وذلك نتيجة صعوبة نطق "مادوروس" بين السكان المحليين. وقبل اعتماد هذه التسمية، كانت المنطقة عبارة عن تجمع سكاني يُعرف باسم "عين سدره". وقد تغير هذا الاسم بعد أن أنشأت سلطات الاحتلال الفرنسي محطة للقطار في منتصف القرن التاسع عشر. ومع توافد الزوّار والسياح إلى المحطة واستفسارهم من السكان عن الموقع الأثري "مادوروس"، بدأ الاسم يُتداول تدريجياً إلى أن استقر بصيغته الحالية. ويُذكر أيضاً أن المدينة كانت تُعرف في فترة ما باسم "مونتيسكيو" (Montesquieu) (Duvivier Recherches; 1841; P45).

2. الموقع الجغرافي والإطار الطبيعي:

تقع البلدة الرومانية القديمة مادوروس شرق مدينة مداوروش، على مسافة تقارب 07 كيلومترات، وتبعد نحو 40 كيلومتراً جنوب مدينة سوق أهراس.

يحدها من الشمال موقع مدينة الدريعة، المعروفة في الفترة الرومانية باسم آدمولاس، والتي تبعد عنها حوالي 4.5 كيلومترات.

أما من الجهة الشرقية، فتجاورها مدينة تاورة، التي كانت تُعرف خلال العهد الروماني باسم تاقورا، وتفصل بينهما مسافة تُقدّر بنحو 16 كيلومتراً.

أما من الجنوب، فتحيط بها سلسلة جبلية منخفضة نسبياً تمتد من الشرق إلى الغرب، وتضم عدة قمم، أبرزها جبل الصنوبر الذي يبلغ ارتفاعه 1129 متراً، ويُعد الأعلى ضمن هذا الامتداد الجبلي (Bulletin de Correspondance Afrique; 1983; P29).

أما فيما يتعلق بالإطار الطبيعي، يمكن القول إن اختيار موقع مادوروس جاء بدراية وحكمة، فقد جمع بين عدة عوامل طبيعية ملائمة. من جهة، يتوفر الموقع على مصادر مائية مهمة، ومن جهة أخرى، يقع بالقرب من السلسلة الجبلية المذكورة سابقاً، والتي وفرت له المواد الأساسية للبناء، سواء الحجرية أو الخشبية. كما تُحيط به أراضٍ خصبة تجود بها مجاري المياه المتفرعة عن وادي المجردة.

تغطي هذه الأراضي معظم الجهات المحيطة بالبلدة، وحتى سفوح المرتفعات لم تكن عائقاً أمام النشاط الزراعي، إذ تتصف بانسبساط نسبي وتوفر موارد مائية متعددة، مما يجعلها صالحة للاستغلال الزراعي.

وتأخذ هذه السهول، قبل موسم الحرث والبذر الذي يبدأ عادة في منتصف فصل الخريف، مظهرًا جافًا يشبه بساطاً أصفر، لتتحول في فصل الربيع إلى لوحة خضراء زاهية ترسمها نباتات القمح والشعير والخرطال والزهور البرية (C. Lepelley; 1981; P126).

تُعد أراضي مستعمرة مادور الحد الفاصل بين المناطق السهلية والمناطق الوعرة، إذ تقع عند نقطة انتقال طبيعية تجمع بين انبساط السهول ووعورة التضاريس الجبلية المحيطة بها، وهو ما منحها طابعاً جغرافياً مميزاً وأهمية استراتيجية سواء من حيث الاستقرار البشري أو النشاط الزراعي والعمراني (St. Gsell et Joly Charles Albert; 1902, P08).

3. الأضرحة:

شهدت ظاهرة تشييد الأضرحة للأموات في البلدات الرومانية القديمة انتشاراً واسعاً، نتيجة التنافس القائم بين العائلات الثرية، حيث اعتُبرت هذه الأضرحة رمزاً واضحاً للثراء ومؤشراً على المكانة الاجتماعية التي تحظى بها العائلة داخل المجتمع البلدي.

ومثلما كان الحال مع الأنصاب الجنائزية الكبرى، كان الضريح يُشيد لتحديد موضع القبر، ويُصمّم بطريقة تجعله مرئياً من مسافات بعيدة، ليؤدي دوراً مزدوجاً: وظيفياً ودلائلياً، مرتبطاً بالهوية والهيبية الاجتماعية للمتوفى وعائلته.

شُيّدت جميع هذه المعالم الجنائزية باستخدام الحجارة المصقولة، وتنوّعت من حيث الحجم والتصميم. فبعضها كان بسيطاً مكوّناً من طابق واحد، في حين تميّز البعض الآخر بتعدد الطوابق، خاصة تلك ذات الطابقين. وكما هو الحال في العديد من البلدات الرومانية، عُثر في مادوروس على عدد من الأضرحة، ورد ذكر بعضها في النقوش الأثرية، من بينها ضريح تم تسجيل تكلفته إنجازه بمبلغ 30,000 سيستيرس.

أما اليوم، فلم يبقَ من هذه الأضرحة إلا ضريح واحد في حالة حفظ جيدة، يقع في الجهة الجنوبية من البلدة، على مسافة تُقدّر بحوالي 370 متراً عن الساحة العمومية. كما تم العثور على قاعدة ضريح ثانٍ في الجهة الشمالية من الموقع، ويقع على بُعد حوالي 225 متراً من الساحة العمومية، غير أن بقية عناصره المعمارية لم تُحفظ، ولم يبقَ منه سوى الأساس الحجري الذي يشير إلى مكانه الأصلي (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص 94-95).

1.3. الضريح الجنوبي:

يقع هذا المعلم الجنائزي وسط مقبرة رومانية تمتد على هضبة تُعرف باسم "هضبة الغيران"، شرق المدينة الأثرية لمادوروس، وجنوب القلعة البيزنطية. ويُعد هذا الموقع من أبرز الفضاءات الجنائزية بالمنطقة نظراً لتموضعه الاستراتيجي وطبيعته الطبوغرافية التي وفرت له رؤية بانورامية على محيطه (فريدة عمروس، 2010/2009، ص 41).

صُنّف ضريح مادوروش كمعلم أثري وطني ضمن قائمة التراث الحمي، وذلك بموجب الجريدة الرسمية رقم 07 الصادرة في جانفي 1998، مما يعكس أهميته التاريخية والأثرية كموروث مميز يعود للفترة الرومانية، ويستدعي الحماية والصيانة في إطار الحفاظ على الذاكرة المعمارية للمنطقة (فريدة عمروس، 2010/2009، ص 42).

يُرجّح تأريخ هذا الضريح إلى القرن الأول أو الثاني الميلادي، بالنظر إلى ارتباطه المباشر بالمدينة القديمة لمادوروس، التي تعود معالمها إلى عهد الفلافيين خلال القرن الأول الميلادي. وقد استمر النشاط العمراني والمعماري بالمدينة خلال القرنين الثاني والثالث، ما يعزز فرضية انتماء الضريح إلى هذه المرحلة الزمنية (M. Chabassiere; 1866, P03).

1.1.3 الشكل العام للضريح:

يُعد هذا الضريح من بين المعالم الجنائزية ذات الطابقين، ويتميّز بشكله المستطيل. يتكوّن من قاعدة مملوءة تشكّل الأساس البنائي، يعلوها طابق أرضي، ثم طابق علوي، مما يعكس الطابع المعماري المتقدّم الذي ميّز بعض المدافن الرومانية في المنطقة، خاصة تلك المرتبطة بالطبقات الاجتماعية الثرية (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص 96).

يظهر الضريح في حالة جيدة بشكل عام، إذ ما يزال يحتفظ بمعظم عناصره المعمارية الأصلية، باستثناء الباب والسقف اللذين فقدتا مع مرور الزمن. ويمكن تصنيفه ضمن فئة الأضرحة ذات الطابق العلوي، حيث يتكوّن من قاعدة صلبة، وطابق سفلي، ثم طابق علوي على شكل مقصورة مدعّمة بالأعمدة، ينتهي بجبهة مثلثة تُشكّل الواجهة الأمامية للسقف، وهو تصميم يعكس الخصائص المعمارية المميزة للأضرحة الرومانية الفخمة (فريدة عمروس، 2010/2009، ص 42).

2.1.3. الوصف الخارجي:

أ- القاعدة:

استُعملت القاعدة كعنصر ارتكاز أساسي للضريح، وقد شُيّدت بشكل مملوء دون أن تُخصّص لغرض الدفن. تأخذ القاعدة شكلاً مربعاً، يبلغ طول ضلعها 5.30 متر وارتفاعها حوالي 0.50 متر، وهي مكوّنة من صف واحد من الحجارة الكلسية المصقولة. وقد زُخرفت من جهاتها الأربع (الشمالية، الجنوبية، الشرقية، والغربية) بنتوءات مقبولة^{*}، ما أضفى عليها طابعاً زخرفياً ينسجم مع الطابع المعماري العام للمعلم (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص 96).

تتكوّن قاعدة الضريح من صف واحد من الحجارة المصقولة، وقد زُيّنت بنتوءات معمارية واضحة، تُلاحظ بشكل جلي من الجهة الشمالية الغربية. تضفي هذه الزخارف البارزة طابعاً جمالياً على القاعدة، وتعكس العناية التي أولاهها البناؤون لتفاصيل المعلم، حتى في أجزائه القاعدية غير المخصّصة للدفن.

ب- الطابق الأول:

يتوجّه الضريح نحو الغرب، وتتكوّن واجهاته من ثمانية صفوف متتالية من الحجارة المنحوتة بعناية. وقد حُصّصت الواجهة الرئيسية لفتح باب يتوسطها، زُيّن إطاره بنتوءات بارزة، ويبلغ ارتفاعه نحو 1.75 متر، بينما يصل عرضه إلى 0.74 متر. وينتهي هذا الطابق العلوي بكورنيش يزيّنه صف من التتوءات، يضفي على المعلم طابعاً زخرفياً متناسقاً يعكس الدقة المعمارية التي ميّزت الأضرحة الرومانية الفخمة (فريدة عمروس، 2010/2009، ص 46).

تمثّل هذه البنية القاعدة الجنائزية للضريح، وهي ذات شكل مربع، يبلغ طول ضلعها 4.75 متر وارتفاعها 4.20 متر. أرضيتها غير مبلطة، ولم يُعثر بداخلها على أي قبر، ما يرجّح أنها لم تُستخدم فعلياً كمكان دفن. أما سقفها، فقد أُنجز بواسطة بلاطات كلسية رقيقة يبلغ سمكها 0.35 متر، دون وجود أي منفذ يربطها بالطابق العلوي، ما يدل على الفصل المعماري بين المستويين. وقد فُتح في جدارها الجنوبي الغربي مدخل بعرض 0.74 متر وعلوّ 1.75 متر، زُيّنت قوائمه وسقفه بنتوءات مقبولة أنجزت بدقة، تعكس مستوى متقدماً من الحرفية في تنفيذ التفاصيل الزخرفية (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص 96).

أمّا في الجدار الداخلي المقابل للباب، تم إنشاء ثلاث مشكاوات مخصصة، تُظهر تنظيمًا وظيفيًا ومعماريًا دقيقًا. تقع المشكاة الوسطى في موضع أعلى مقارنةً بالجانبيتين، وتتميّز بشكل مربع، حيث تقع على ارتفاع 1.50 متر من أرضية الغرفة ويبلغ طولها حوالي 0.50 متر. أما المشكاتان الجانبيتان، فتقعان على ارتفاع 1 متر من الأرضية، وتتشابه مقاساتهما مع المشكاة الوسطى تقريباً، وتنتهيان بحنيّة خفيفة تضفي عليهما طابعاً زخرفياً مميزاً. تفصل بين هذه المشكاوات مسافة تُقدّر بحوالي 1 متر، ويُرجّح أنها كانت تُستخدم لوضع أواني حفظ رماذ الموتى، المعروفة بالمرمدات، ما يشير إلى اعتماد طقوس دفن تعتمد الحرق، والتي كانت شائعة في بعض مراحل الفترة الرومانية (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص 96).

^{*} - هي عناصر زخرفية تضاف على الجدران والأسقف وكذلك الأعمدة والقواعد، تكون منحوتة إما بارزة أو غائرة ولا تكون ذات سمك كبير.

ج-الطابق الثاني:

يتخذ هذا الجزء من الضريح شكل مقصورة ذات فتحة مقبوسة، تتكوّن جدرانها من أحد عشر صفًا من الحجارة المنحوتة. ويعلو فتحة المقصورة عقد معماري مكوّن من ثلاث عشرة قطعة حجرية تُعرف باسم "الصنجات" (Claveaux). تعلو هذا العقد جبهة ثلاثية غير مكتملة، تتكوّن من خمس قطع حجرية، يبلغ أقصى ارتفاع لها 1.10 متر، بينما يصل عرضها إلى 2.50 متر. أما الجبهة الثلاثية الخلفية، فقد حافظت تقريبًا على جميع عناصرها الأصلية، وتوجّ المبنى بسقف سلمي*، يُستدل عليه من خلال بقايا الجبهات الثلاثية التي تظهر آثارها بوضوح. وتُشكّل هذه الواجهة الواجهة الرئيسية الحالية للمعلم، وقد أعيد تشكيلها في وقت لاحق للحفاظ على هيئتها. كان سقف المبنى يركّز على قبو المقصورة، وقد وُضعت فوقه بلاطات مسطحة، تحدّها من الجهتين الشرقية والغربية الجبهات الثلاثية. أما الواجهات الثلاث الأخرى (الجنوبية، الشرقية، والشمالية)، فنبذو بسيطة في تصميمها، وقد بُنيت جميعها باستخدام حجارة منحوتة، دون زخرفة معمارية بارزة.

يتكوّن الطابق العلوي من غرفة مفتوحة ومتراجعة نسبيًا من الجهة الأمامية (الغربية)، وقد شُيّدت على شكل مقصورة تُزيّن من الواجهة عمودان أماميان، بالإضافة إلى ركيزتين مدججتين بالجدارين الجانبيين. وتحمل هذه الغرفة واجهتين مثلثتين، إحداها في الجهة الأمامية والأخرى في الجهة الخلفية، وهما اللتان تستندان عليهما صفائح كلسية رقيقة تشكّل سقف المعلم. أما من حيث الوظيفة، فيُرجّح أن هذه الغرفة كانت مخصّصة لعرض تماثيل الموتى، بينما وُضعت مرمدهم داخل الضريح، ما يعكس طقسًا جنائزيًا يربط بين تكريم الرفات وتخليد الصورة الرمزية للمتوفى عبر التمثال.

أما فيما يخص أسلوب البناء المعتمد في إنجاز هذا الضريح، فقد تم استخدام الطريقة التريبية*، وهي تقنية معمارية تقوم على ترتيب الحجارة المصقولة بشكل منتظم ومتناسك.

تبلغ مقاسات هذه الحجارة حوالي 1.50 متر طولًا و 0.60 متر عرضًا، أما سُمكها فقد قُدّر بـ 0.60 متر.

يتكوّن الطابق السفلي من ثمانية صفوف من هذه الحجارة، في حين يتكوّن الطابق العلوي من أحد عشر صفًا. ويفصل بين الطابقين إفريز أُنجز باستخدام تقنية التواءات المقبولة، ما يُضفي على المعلم توازنًا بصريًا وزخرفيًا يجمع بين الدقة التقنية والجمالية المعمارية.

د- النقيشة:

تم العثور على نقش جنائزي بالقرب من الضريح، يبلغ طوله 1.38 متر وارتفاعه 0.49 متر. يتكوّن هذا النقش من خمسة سطور، ومن المرجّح أنه يحتوي على معلومات تخص هوية المدفون أو الجهة التي شُيّدت الضريح، ما يُعد عنصرًا مهمًا في توثيق الوظيفة الأصلية للمعلم وفهم الطقوس الجنائزية المرتبطة به.

– Pompeo Honorato, C.... Pompeo

– Pompeo Norato, Pompeo.V...

* - هو نوع من الأسقف اشتهر بنائه عند الرومان دونا عن من سبقهم سواءً من الإغريق أو الحضارات الشرقية، وكان استخدام هذه الطريقة بكثرة عند سكان شرق آسيا (الصين، اليابان، كوريا...). فيما بعد، وهو سقف مثلث الشكل مفتوح من الأعلى على شكل معين، يعلوه سقيف صغير الحجم مثلث الشكل تستخدم الفتحة الأولى في السقف للتهوية، أما المثلث الذي يعلوها فيستخدم لحمايتها في حالة تساقط الأمطار.

* - هي تقنية تدعى أيضا بالنظام الكبير وتمثل في رص مداميك من الحجارة المنحوتة ذات الأحجام الكبيرة وقد تكون مربعة أو مستطيلة.

- Fortunata, Pompeio.VIT...
- ET.AD, Pompeio.ME Morian...Statuam
- DE.SOU.Posiut UNT...

يشير النص الجنائزي إلى وجود عدد كبير من الأفراد الذين يحملون الاسم العائلي "بومبي" (Pompeius)، والذين وُضعت رفاتهم داخل الضريح، ما يُرجّح أن المعلم كان مملوكًا لعائلة بومبي، وهي على الأرجح من العائلات الثرية والمؤثرة في مدينة مادوروس خلال الفترة الرومانية.

أما من حيث التاريخ، فيُحتمل أن يعود الضريح إلى القرن الثاني الميلادي، وذلك استنادًا إلى قربهِ من المقبرة الجنوبية، بالإضافة إلى أسلوب بنائه الذي يتماشى مع المعايير المعمارية السائدة في تلك الفترة (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص97).

3.1.3. الهيكل الداخلي:

تم العثور داخل الطابق السفلي على غرفة جنائزية مربعة الشكل، تحتوي على ركيزتين: إحداهما تقع في الجهة الشمالية من الغرفة، والأخرى في الجهة الجنوبية. وتؤدي هاتان الركيزتان وظيفة إنشائية مهمة، حيث تحمّلان السقف المشيّد على شكل قبو، والذي بدوره يشكّل دعامة لأرضية الطابق العلوي المبلطة.

ونجد نفس التقنية الإنشائية تتكرر في الطابق العلوي، حيث تقوم ركيزتان بدعم قوس معماري، يُشكّل بدوره قاعدة لسقف المبنى. هذا التماثل في الأسلوب البنائي بين الطابقين يبرز اتساق التصميم المعماري للضريح ويعكس دقة التنظيم الميكانيكي للمكان (فريدة عمرو، 2010/2009، ص50).

استُخدمت هذه التقنية المعمارية في العمارة الرومانية بهدف توزيع الثقل بشكل متوازن بين عناصر البناء، مما يعزّز من استقرار الهيكل وديمومته. وفي الوقت نفسه، يمكن اعتبارها عنصرًا زخرفيًا يضيف على الغرفة طابعًا فنيًا وجماليًا، حيث لم تكن العناصر الإنشائية في العمارة الرومانية تؤدي وظيفة تقنية فقط، بل كانت غالبًا ما تُدمج بعناية ضمن الرؤية الجمالية العامة للمبنى (فريدة عمرو، 2010/2009، ص51).

4.1.3. مواد وتقنيات البناء:

بُني هذا المعلم باستخدام الحجارة الكلسية المنحوتة، والتي استُخرجت محليًا من محيط الموقع. وقد جرى تركيب هذه الحجارة دون استعمال الملاط، بالاعتماد على تقنية دقيقة تقوم على استغلال وزن الحجارة لتحقيق التوازن والاستقرار البنائي. تعكس هذه الطريقة معرفة متقدمة بفن البناء الروماني، الذي كان يركز على الدقة في التقطيع والتركيب لضمان تماسك الهيكل دون الحاجة إلى مواد رابطة (فريدة عمرو، 2010/2009، ص52).

5.1.3. زخارف معمارية:

عُثر على كورنيش يزيّن الضريح ويفصل بين الطابقين، يحيط بكامل محيط المبنى، ويبرز عنه بحوالي 30 سم من جميع الجهات، ما يمنح المعلم بروزًا زخرفيًا واضحًا. كما وُجد كورنيش ثانٍ يفصل بين الطابق العلوي والسقف، يساهم في تحديد الكتلة المعمارية العليا للمبنى. إلى جانب ذلك، زيّنت النتوءات المعمارية كلاً من قاعة الضريح وإطار الباب، ما يبرز العناية بالتفاصيل الزخرفية، ويعكس الأسلوب الروماني في الدمج بين الوظيفة المعمارية والزينة البصرية (فريدة عمرو، 2010/2009، ص52).

2.3. الضريح الشمالي الغربي:

يقع هذا الضريح في الجهة الشمالية الغربية من الموقع، على مسافة تُقدَّر بحوالي 225 مترًا من الساحة العمومية. ولم يتبقَّ منه اليوم سوى قاعدته، التي تأخذ شكلًا مربعًا، وتتكوّن من خمسة صفوف من الحجارة الكلسية المصقولة. تعكس هذه البقايا البسيطة حجم الضريح الأصلي وتشير إلى أنه كان معلمًا جنائزيًا ذا أهمية ضمن النسيج الجنائزي لمدينة مادوروس (بورجلي إبراهيم، 2010/2009، ص98).

- الصف الأول ضلعه 4.50 م.
- الصف الثاني ضلعه 4.40 م.
- الصف الثالث ضلعه 4.08 م.
- الصف الرابع ضلعه 3.75 م.

عُثر بالقرب من هذا الضريح على جزء كبير من الطنف، يحمل زخارف نباتية وهندسية نقّدت بدقة عالية، وتُظهر مستوى فنيًا متقدمًا. في مركز هذا العنصر الزخرفي يوجد صليب، مما يدل على طابع مسيحي، ويعلوه نقش لم يبق منه سوى اسم (FAUSTINIANE FABRICIA)، ما يرجّح أن هذا العنصر يعود إلى الفترة المسيحية من تاريخ المدينة.

كما تم العثور، قرب الضريح الجنوبي وبجوار الحمامات الكبرى، على أجزاء أخرى من أطناف مزخرفة بنفس الأسلوب، كانت تُستخدم في تزيين أضرحة أخرى، مما يشير إلى انتشار استخدام الزخرفة المعمارية المتقنة في المعالم الجنائزية بمادوروس، خصوصًا خلال المرحلة المتأخرة من الحقبة الرومانية ذات الطابع المسيحي (بورجلي إبراهيم، 2010/2009، ص98).

3.3. ضريح القصر الأحمر:

يقع هذا المعلم على بُعد حوالي 20 كيلومترًا شرق مدينة مادوروس (Madauros) القديمة، ويُرجّح تأريخه إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي على الأكثر، استنادًا إلى أسلوب بنائه والمعطيات الأثرية المحيطة به، ما يجعله شاهدًا مهمًا على تطور العمارة الجنائزية في المنطقة خلال المرحلة الرومانية المتأخرة (فريدة عمرو، 2010/2009، ص53).

1.3.3. الشكل العام للضريح:

يتخذ هذا المبنى تخطيطًا مربع الشكل، ويتكوّن من قاعدة وطابقين، ما يسمح بتصنيفه ضمن فئة الأضرحة ذات الطابق العلوي. يبلغ طول ضلع الطابق السفلي 3.15 متر، بينما يصل الارتفاع الكامل للمعلم إلى نحو 11 مترًا. يعكس هذا التصميم توازنًا بين البنية الرأسية والزخرفية، ويُظهر الاهتمام الذي أولاه الرومان للمعالم الجنائزية، خصوصًا في ما يتعلق بمكانة المتوفى الاجتماعية والمعمارية.

2.3.3. القاعدة:

تتكوّن قاعدة المبنى من درجتين تشكّلان قاعدة مرتفعة يتركز عليها الطابق السفلي، الذي يظهر على هيئة كتلة حجرية مصمتة دون أي منفذ. بُنيت جدرانها من ثمانية صفوف من الحجارة المنحوتة بعناية، وزُيّنت واجهته الرئيسية بباب وهمي ونقوش ومنحوتات إضافية تعكس طابعًا رمزيًا وجماليًا.

يعلو هذا الطابق كورنيش يُفصل به معماريًا وزخرفيًا عن الطابق العلوي، الذي يتخذ شكل مقصورة ذات فتحة مقوسة، معتمدة، وموجّهة نحو الشرق. ونظرًا لوجود آثار جبهة نصف دائرية خلف المبنى، يمكن افتراض أن السقف كان يتخذ شكل طابق، ما ينسجم مع الطراز المعماري المعروف للأضرحة متعددة الطوابق في الفترة الرومانية (فريدة عمرو، 2010/2009، ص53).

3.3.3. الهيكل الداخلي:

تم العثور داخل الطابق الأرضي على غرفة مغلقة دون مدخل ظاهر، ما يُشير إلى طابعها الرمزي أو الجنائزي المغلق. وقد أشار الباحث فزال إلى وجود سرداب أسفل المبنى، ما يعزز فرضية اعتماد هذا المعلم كنموذج للدفن تحت الأرض، وفق تقاليد دفن رومانية كانت تعتمد في بعض الحالات على إنشاء فراغات خفية تحت المعلم لوضع الرفات أو الرماد، مع المحافظة على الشكل الخارجي الضخم كعلامة على المكانة الاجتماعية للمتوفى.

4.3.3. مواد وتقنيات البناء:

بُني هذا المعلم باستخدام حجارة كبيرة منحوتة بعناية، وُضعت بطريقة منتظمة ومحكمة دون استخدام الملاط. وتعتمد هذه التقنية على الدقة في تقطيع الحجارة وتثبيتها، مستفيدة من وزنها الكبير لتحقيق الثبات والاستقرار البنائي، وهي طريقة شائعة في العمارة الرومانية، تعكس براعة الصنّاع وقدرتهم على إنشاء مبانٍ متماسكة تدوم لقرون (فريدة عمروس، 2010/2009، ص53-54).

5.3.3. زخارف معمارية:

زُيّن كورنيش الطابق السفلي وكورنيش الطابق العلوي، إضافة إلى قاعدة المبنى، بنتوءات معمارية بارزة أنجزت بدقة. تضيف هذه النتوءات طابعاً زخرفياً مميزاً على المعلم، وتعكس الأسلوب الروماني في الدمج بين الوظيفة البنوية والزينة الجمالية، حيث لم تُترك أي تفاصيل دون عناية، حتى في الأجزاء القاعدية للمبنى (فريدة عمروس، 2010/2009، ص54-55).

6.3.3. زخارف منحوتة:

تظهر على الواجهة الرئيسية للمبنى أعمال نحت بارزة، من بينها باب وهمي ذو مصراعين، يحمل سائلاً مزيّناً بنتوءات دقيقة التنفيذ. يعكس هذا الباب الوهمي طابعاً رمزياً جنائزياً، إذ يُستخدم في العمارة الرومانية للدلالة على العبور إلى العالم الآخر، فيما تُبرز النتوءات والزخارف المحيطة به العناية بالتفاصيل الزخرفية، وتعكس المكانة الاجتماعية لصاحب الضريح (فريدة عمروس، 2010/2009، ص55).

وُنحت على جانبي الباب الوهمي تماثيل يرمز إلى الموت، يُجسّد شاباً مجتّحاً في وضعية نوم، متكئاً على مشعل مقلوب. يشير هذا المشهد الرمزي إلى انطفاء الحياة، وهو عنصر شائع في الفن الجنائزي الروماني، حيث يرمز المشعل المقلوب إلى نهاية الدورة الحياتية، بينما تعكس هيئة الشاب المجتّح صفة الأبدية أو الانتقال إلى العالم الآخر، مما يضيف بعداً رمزياً عميقاً على واجهة المعلم (St. Gsell; 1938; P70).

وتتكرر نفس الصورة الرمزية على جانبي النقيشة، حيث يظهر الشاب المجتّح في وضعية النوم، متكئاً على مشعل مقلوب. هذا التكرار ليس مجرد عنصر زخرفي، بل يؤكد الرسالة الرمزية التي أراد منشئ الضريح إيصالها، وهي تمجيد الموت كمرحلة انتقالية، وترسيخ لفكرة الهدوء الأبدي. كما يعكس التناسق بين النقيشة والزخارف المحيطة بها مستوى راقٍ من التنظيم الرمزي والبصري في الفن الجنائزي الروماني (فريدة عمروس، 2010/2009، ص56).

7.3.3. النقيشة:

عُثر على نقيشة غير مكتملة على الواجهة الرئيسية للمبنى، نُقشت أسفل الكورنيش الذي يفصل بين الطابق السفلي والطابق العلوي. ووضعت هذه النقيشة داخل إطار مزخرف بنتوءات بارزة، ما يضيف عليها طابعاً زخرفياً مميزاً. تتكوّن النقيشة من جزئين، ما يُشير إلى أنها ربما كانت تحتوي على نص مكوّن من فقرتين أو أكثر، من المرجّح أن يتضمن أسماء، ألقاباً أو عبارات جنائزية تمجّد المتوفى أو العائلة المالكة للضريح، وهي ممارسة شائعة في العمارة الجنائزية الرومانية.

جاء في الجزء الأول من النقيشة العبارات التالية:

- M.ANNIO.LEN [(...)]
- SECUNDO.AVO NAB [(...)]
- FAUSTO.PATRI CAEC [(...)]
- SAXONI.FRATI PRIN [(...)]
- FAUSTIANI.FRATRI.S(T)L VIC [(...)]

ويمكن إتمام وقراءة الجزء الأول كما يلي:

- M (ARCO).ANNIO.LEN (O)
- SECUNDO.AVO
- FAUSTO.PATRI
- SAXONI.FRATI
- FAUSTIANI.FRATI.S (IT).T (ERRA).L (EVIS)

نُسبت هذه النقيشة إلى ماركو أيثولينوس الجد الأكبر، وإلى فوستو الأب، وكذلك إلى الأخوين سكسوني وفوستياني، ما يعكس الطابع العائلي للضريح ويدل على أنه حُصِّص لعدد من أفراد العائلة عبر أجيال متعاقبة. وينتهي النص بجملة جنائزية مألوفة في النقائش الرومانية، وهي دعاء يُعبر عن الرحمة للميت: "ليكن التراب خفيفاً"، في إشارة رمزية إلى الراحة الأبدية والتمني للميت بأن يكون قبره هادئاً وغير مُثقل، وهو تعبير شائع في الثقافة الرومانية يختصر مشاعر الوداع والتقدير.

أما الجزء الثاني فهو غير كامل، وقراءته تكون كما يلي:

- NABE [(...)]
- CAEC (ILIUS)
- PRIN [(CEPOU CIPIS)]
- VIC [(TOR)

رغم عدم اكتمال النص، إلا أن محتواه يشير إلى نسب وشخصيات محتملة كانت ذات شأن، كما يعكس الصياغة الرسمية للنقوش الجنائزية الرومانية، التي تخلد أسماء المتوفين وصفاتهم أو وظائفهم.

4. التوابيت:

1.4. تعريف التابوت:

يُعد هذا المعلم من أبرز المعالم الجنائزية التي استخدمها الرومان، خاصة خلال القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد. وقد حُصصت التوابيت لدفن الموتى الذين ينحدرون من الطبقات الراقية والثرية في المجتمع، مما يعكس المكانة الاجتماعية والاقتصادية للمتوفى.

تُصنع هذه التوابيت من مواد متنوعة، منها حجر الفليس (Le pépérin)*، والرخام الأبيض، وأحياناً من الرخام السماقي الأحمر (Le rouge porphyre)، الذي كان يُستورد ويُعتبر من أكثر المواد فخامة وندرة.

توجد ثلاثة أنواع رئيسية من هذه التوابيت:

- التوابيت البسيطة، وتكون خالية من الزخرفة.
- التوابيت المزخرفة، وتحمل عناصر نباتية أو هندسية.
- التوابيت المنقوشة، وتتميز بمشاهد تصويرية أو كتابات تُخلّد اسم المتوفى وصفاته.

يعكس هذا التنوع في الشكل والمادة مدى الأهمية الرمزية والدينية والاجتماعية التي أولاها الرومان لمراسم الدفن وخلود الذكرى.

أولى الرومان اهتماماً كبيراً بزخرفة توابيت موتاهم، لكنهم اتبعوا تقليداً مختلفاً عن اليونانيين في هذا الجانب. فقد كانوا يزخرفون ثلاث واجهات فقط من التابوت: الواجهة الأمامية والجانبين، بينما يتركون الواجهة الخلفية دون زخرفة لأنها كانت تُلصق مباشرة بالجدار داخل الغرفة الجنائزية أو الضريح.

هذا بخلاف اليونانيين، الذين كانوا يزيتون جميع الأوجه الأربعة للتابوت، لأنهم غالباً ما كانوا يضعون توابيتهم في وسط المعبد أو في أماكن مكشوفة من جميع الجهات، ما كان يقتضي تزيينها من كل جانب. يعكس هذا الفرق في الزخرفة اختلافاً في الطقوس الجنائزية والمفاهيم المعمارية بين الثقافتين.

2.4. مواضيع التزيين:

تنوعت مواضيع التزيين التي استخدمها الرومان في زخرفة توابيتهم، وكانت تعكس المكانة الاجتماعية للميت ومعتقداته الدينية وأهم محطات حياته. من أبرز هذه المواضيع:

- زخارف نباتية كالأزهار وأكاليل الغار والعنب، ترمز للخلود أو الرفاه.
- زخارف فاكهية ترمز للخصوبة والحياة بعد الموت.
- تصوير وجه الميت في مشهد مركزي، كنوع من التمجيد الشخصي والخلود الرمزي.
- مشاهد من حياة الميت الخاصة، مثل مشهد الزواج أو العائلة.
- مشاهد من حياته العامة، كالمشاركة في الحياة العسكرية أو السياسية.

* - حجر بركاني يستعمل في البناء.

- مشاهد تقديم القرابين، التي تعبّر عن التقوى والارتباط بالآلهة.

- صور رمزية للحياة الأخرى، تعكس معتقدات رومانية حول العالم الآخر.

هذا التنوع في المواضيع والزخارف يعكس مدى الثراء الرمزي والفني للثقافة الجنائزية الرومانية، وحرصهم على تخليد صورة الميت في ذاكرة الأحياء.

3.4. أشكال التوابيت:

بُنيت بعض التوابيت الرومانية على هيئة بيوت صغيرة، بأشكال تُحاكي العمارة السكنية، تعبيراً عن فكرة "البيت الأبدي" للميت. في حين اتخذت توابيت أخرى أشكالاً مختلفة مثل الشكل البيضوي، أو المربع، أو المستطيل، أو حتى شكل الحوض الثلاثي الزوايا، بحسب الذوق الشخصي أو الخلفية الثقافية والاجتماعية لصاحب التابوت.

ومع تطور الفن الجنائزي، بدأت تظهر عادة نحت التابوت على هيئة إنسان، حيث يُجسّد شكل الجسد وتُحفر ملامح الوجه بدقة على غطاء التابوت. هذا التحول عكس رغبة واضحة في تخليد ملامح الميت وربطه بهويته الفردية، فصار التابوت لا يرمز فقط إلى الموت، بل إلى الشخص ذاته، بحضوره وشخصيته وهيئته (F. Cumont: 1942: P543).

أما بالنسبة لأشكال التوابيت التي وُجدت في مدينة مادور، فجميعها جاءت مستطيلة الشكل، دون وجود نماذج بأشكال بيضوية أو معمارية خاصة كما هو الحال في بعض المدن الرومانية الأخرى. يعكس هذا الشكل الموحد تأثيراً واضحاً للتقاليد الجنائزية المحلية، وربما يدل على نمط معيشي واجتماعي أكثر تحفظاً أو محدودية في الخيارات الفنية مقارنة بالمراكز الحضرية الكبرى في المقاطعات الرومانية. كما قد يكون مرتبطاً بطبيعة الورش المحلية التي اقتضت على إنتاج نمط واحد شائع الاستخدام في تلك الفترة.

4.4. التوابيت المتواجدة بمادور:

أما التوابيت التي عُثِر عليها في موقع مادور، فقد صُنعت جميعها من الحجر الكلسي، وهو نفس المادة المستخدمة في معظم المعالم الجنائزية بالمنطقة، نظراً لتوفرها محلياً وسهولة نحتها.

وعدد هذه التوابيت قليل، ويبدو أنها حُصصت لأفراد محددين من الطبقة الراقية. يبلغ طول كل تابوت منها حوالي 1.80 متر، وعرضه نحو 0.53 متر، وهي مقاسات تُناسب دفن الأجساد البشرية بطريقة ممددة، ما يعكس نمط الدفن التقليدي المتبع في الفترات الرومانية.

استُعمل عدد من هذه التوابيت في الفترة البيزنطية لأغراض غير جنائزية، حيث حُوّلت إلى أحواض لحفظ المياه داخل بعض المنازل، وهو ما يدل على تغيّر وظيفة المعالم الأثرية مع الزمن واستخدامها حسب حاجات السكان. أما محتويات هذه التوابيت، فهي لا تزال مجهولة، إذ لم تتناولها التقارير الأثرية بالتفصيل، ولم يُسجّل ما إذا كانت تحتوي على رفات أو لقيى جنائزية. وبالنسبة للتوابيت التي كُشف عنها مؤخراً، فإن دراستها لا تزال محدودة، وما توفر من معلومات عنها يبقى بحاجة إلى تحقيق أثري أوسع ودقيق للكشف عن استعمالها، خصائصها الفنية، والسياق الجنائزي الذي وُجدت فيه (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص92).

أما التوابيت التي تم العثور عليها مؤخراً، فقد اكتُشفت بالصدفة في الجهتين الشرقية والشمالية من موقع مادور، وذلك أثناء عمليات نزع التربة لأغراض مختلفة. وقد بلغ عددها سبعة (07) توابيت، وهي أيضاً مصنوعة من الحجر الكلسي، وتتماثل في الشكل مع التوابيت السابقة المستطيلة. وُجد بداخل بعضها بقايا عظمية، ما يؤكد استخدامها الجنائزي، وربما تعود لأفراد من نفس العائلة أو من طبقة اجتماعية معينة (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص95).

هذا الاكتشاف يفتح المجال أمام دراسات أنثروبولوجية وأثرية جديدة لفهم الطقوس الجنائزية المتبعة، وأنماط الدفن، وحالة العظام قد تساعد أيضًا في تحديد العمر أو الحالة الصحية للمدفونين.

5. المذابح:

1.5. تعريف المذبح:

هو معلم جنائزي يُنحت من حجر واحد، ويأخذ شكل عمود، أو مسلة، أو حجر منصوب بشكل رأسي. يُستخدم هذا النوع من المعالم لتحديد مكان القبر أو الضريح، ويُعد من الأشكال البسيطة والأكثر شيوعًا في المدافن الرومانية.

غالبًا ما يُزين هذا الحجر برسومات أو نقوش رمزية، كالأكاليل، أو الصليبان، أو الزهور، وأحيانًا يُكتب عليه اسم الميت أو عبارات جنائزية. هذا الشكل من المعالم يعكس بساطة الدفن من جهة، وحرص المجتمع على وضع علامة دائمة تحفظ ذكرى المتوفى من جهة أخرى.

2.5. أشكال المذابح:

يمكن أن يتخذ المذبح أشكالًا مختلفة بحسب الغرض والظروف، فقد يكون بسيطًا جدًا مثل كومة من التراب، أو مصممًا بعناية كطاولة حجرية منقوشة ومزخرفة.

استخدم الإغريق القدماء والرومان هذه المذابح ضمن طقوسهم الدينية، سواء في الهواء الطلق، داخل المنازل، أو في المعابد المخصصة للعبادة العامة. وكان الغرض منها حرق البخور وتقديم القرابين أو الهبات الرمزية للإله أو مجموعة من الآلهة، تعبيرًا عن الطاعة أو الامتنان، أو طلبًا للغفران والحماية (R. Turcan; 1999; P194).

تُظهر هذه الممارسة المكانة المركزية التي كانت للدين في الحياة اليومية لدى هذه الشعوب، ودور المذبح كصلة رمزية بين الإنسان والعالم الإلهي.

3.5. المذابح المتواجدة بمادور:

أما بالنسبة للمذابح التي تم العثور عليها في موقع مادور، فهي أقل عددًا مقارنة بالأنصاب، حيث بلغ مجموعها 58 مذبحًا فقط. تتميز هذه المذابح بكونها منحوتة في الغالب من قطعة حجرية واحدة، ما يعكس مستوى الحرفية والدقة في تنفيذها.

وقد رُتبت أغلبها من الأعلى والأسفل بنتوءات مقبولة، تُقذت بعناية ودقة فنية عالية، ما يدل على أهميتها في الطقوس الدينية أو الجنائزية، وعلى مكانتها في الثقافة المادية للمدينة. هذا النمط من المذابح يعكس أيضًا استمرار التأثيرات الرومانية في المعمار الجنائزي المحلي.

أما النوع الآخر من المذابح المكتشفة في مادور، فهي مذابح مركبة، تتكون من ثلاثة عناصر معمارية: قاعدة، وجذع، وتاج. يُلاحظ في هذه النماذج استخدام عناصر زخرفية متنوعة، مثل أكاليل النصر التي غالبًا ما يُضاف إليها رمز الهلال بطرفيه المرفوعين نحو الأعلى، وهي رموز شائعة في الفن الجنائزي الروماني. عادة ما يُوضع هذا التزيين في أعلى النص الجنائزي، ليمنحه بعددًا رمزيًا ودينيًا. كما حملت هذه المذابح أيضًا زخارف نباتية مثل الزهيرات بأشكال مختلفة، وثمار الصنوبر، وأوراق الرند، وهي كلها رموز تُشير إلى الخلود والتقديس.

لكن ما يميّز مذابح مادور أنها جاءت خالية من المشاهد الجنائزية التقليدية التي كانت تُنقش عادة على الجوانب، مثل صور الأباريق والكؤوس، والتي تُستخدم لتجسيد طقوس تقديم القرابين لأرواح الآلهة. قد يعود هذا الغياب إلى بساطة الطقوس المحلية أو إلى تغيير في الدلالة الرمزية للمذبح في سياق المدينة (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص 93).

6. الطاولات الجنائزية:

1.6. تعريف الطاولات الجنائزية:

الموائد الجنائزية هي معالم أثرية كانت تُستخدم في الطقوس المرتبطة بالموت والدفن، وهي مصنوعة من بلاطات حجرية غالبًا ما تكون مربعة أو مستطيلة الشكل.

يُنحت على سطحها كؤوس وصحون بشكل بارز أو غائر، حيث توضع فيها المأكولات والمشروبات التي تُقدّم كقرايين رمزية للميت. هذا الطقس يعكس الاعتقاد بأن للميت حياة أخرى بعد الموت، ويحتاج فيها إلى الغذاء كما في حياته.

تُعتبر هذه الموائد شاهدًا على المعتقدات الجنائزية الرومانية، وعلى الروابط القوية بين الأحياء والأموات، حيث كان الأهل يُحيون ذكرى موتاهم من خلال تقديم الطعام عند القبر في مناسبات خاصة.

2.6. الطاولات الجنائزية المتواجدة بمادور:

بلغ عدد الطاولات الجنائزية التي عُثر عليها في الموقع الأثري بمادور 52 طاولة، وهو عدد يُظهر أهمية هذا النوع من المعالم في الطقوس الجنائزية المحلية.

تنوعت أشكال هذه الطاولات بين المربع والمستطيل، وكلها صُنعت من الحجر، ونُقشت عليها أدوات تقديم الطعام مثل الكؤوس والأطباق. يشير هذا التنوع إلى تعدد الاستخدامات والطقوس المرتبطة بتكريم الموتى، كما يعكس استمرار الممارسات الرومانية في التقاليد الجنائزية التي كانت متبعة في مادور خلال تلك الفترة.

كان النص الجنائزي يُنقش مباشرة على سطح الطاولة الجنائزية، غالبًا داخل إطار زخرفي نباتي، إما مغلقًا أو مفتوحًا من الجهة السفلية للطاولة، حسب نمط التنفيذ والزخرفة.

أما الزوايا، فكانت تُزيّن بنقوش تمثل أدوات الطقوس الجنائزية، مثل الجفنة (الوعاء)، الإبريق، والكأس، وهي رموز تعبّر عن تقديم القرابين. كما رُفقت هذه الرموز بزخارف نباتية تحمل دلالات رمزية، مثل عناقيد العنب، والزهيرات، وأوراق النبات، وكلها ترتبط بمفهوم الحياة، والخصب، والاستمرار بعد الموت.

هذا التداخل بين الرموز النباتية والجنائزية يعكس غنى المعتقدات الدينية والطقسية التي كانت سائدة في مادور خلال الفترة الرومانية، ويمتدنا تصورًا دقيقًا عن الطقوس المرتبطة بإكرام الموتى.

وكانت الطاولات الجنائزية في الفترة الإمبراطورية الأولى توضع مباشرة على الأرض أمام القبور، وتُرافقها عادة أنصاب جنائزية تُثبت خلفها لتحديد مكان القبر والتعريف بصاحبه. هذا التنسيق بين الطاولة والنصب الجنائزي يعكس الطابع الطقسي والبصري للمكان، إذ كانت الطاولة مخصصة لتقديم القرابين، بينما يرمز النصب إلى الميت وهويته.

لكن ابتداءً من القرن الرابع الميلادي، شهدت هذه الممارسة تغييرًا واضحًا، حيث أصبحت الطاولات الجنائزية تُوضع لوحدها أمام القبر، دون أن تُرافق بأنصاب. هذا التحول يعكس تطورًا في التقاليد الجنائزية، خاصة مع التأثير المسيحي الذي بدأ يطغى على الطقوس، إذ بات التركيز أكبر على الطقوس الروحية بدل الرموز المادية.

وقد بلغ عدد الطاولات الجنائزية ذات الطابع المسيحي في مادور 24 طاولة، ما يدل على انتشار الممارسات الجنائزية المسيحية في المدينة خلال العصور المتأخرة (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص 93-94).

7. الصناديق النصف اسطوانية:

1.7. تعريف الصندوق النصف أسطواني:

وهي كتل حجرية مستطيلة الشكل تُنحت قمته على هيئة نصف دائري، وتُعرف بتسمية (Cupulae). يبلغ متوسط طولها حوالي 1.10 متر، وعرضها 0.40 متر، بينما يصل ارتفاعها إلى نحو 0.45 متر.

كانت هذه المعالم تُستخدم كعلامات توضع فوق القبور للدلالة عليها، تمامًا كما هو الحال مع الأنصاب، لكنها تتميز بشكلها المقوس. وتحمل هذه القطع عادة نقوشًا أو إهداءات موجهة إلى أرواح الآلهة المقدسة، ما يعكس بعدها الطقسي والديني، ويُشير إلى الاعتقاد في الحياة بعد الموت وضرورة الحفاظ على صلة رمزية بين الأحياء والميت من خلال هذه الشواهد.

2.7. الصناديق المتواجدة بمادور:

عُثر في الموقع الأثري بمادور على صندوق جنائزي واحد أثناء الحفريات التي أُجريت في الجهة الغربية، قرب الكنيسة الغربية. وقد أُضيف لاحقًا إلى هذا الاكتشاف صندوقان آخران، تمكّن الباحثون، وعلى رأسهم الدكتور إبراهيم بورحلي، من تحديد موقعهما في الآونة الأخيرة.

الصندوق الأول أُعيد استخدامه في بناء السور المقابل لمدخل الموقع الأثري، وهو ما يدل على إعادة توظيف بعض المعالم القديمة في فترات لاحقة. أما الصندوق الثاني فقد وُجد على بعد بضعة أمتار جنوب "عين مداوروش"، لكن الجزء الأكبر منه ما يزال مطمورًا في الأرض، ولا يظهر منه سوى واجهته التي تحمل نقشًا جنائزيًا، مما يرجّح كونه أحد معالم الدفن الهامة التي لم تُكشَف بعد بشكل كامل.

تكشف هذه الصناديق عن جانب مهم من الطقوس الجنائزية في مادور، خاصة ما يتعلق بالدفن الفردي للأشخاص ذوي المكانة، واستخدام النقوش للتعريف بهوية المدفون وتخليد ذكراه (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص94).

D.M.S

FELICISSIMUS SERVUS

V.AN.XXVI

HSE

"إلى أرواح الآلهة المقدسة، فيليسيسموس سارفيوس عاش 26 سنة، هنا يقيم". ويمكن تأريخ هذا النص بالقرن الثالث ميلادي حسب التركيبة الاسمية، كما زَيّن هذا المعلم الجنائزي بإكليل نباتي شبيه بتلك التي تزَيّن عادة المذابح، كما حمل في قسمه العلوي هلالاً (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص94).

8. الأنصاب:

1.8. تعريف النصب:

النصب المدفني، أو حجر الشاهد المدفني، هو معلم جنائزي يُقام لتحديد موضع القبر. يأخذ هذا النوع من البناء أشكالاً مختلفة، بحسب الحقبة والتقاليد الجنائزية المتبعة، إلا أن غايته الأساسية تبقى واحدة: الدلالة على وجود دفن في المكان.

يُشبه هذا النصب أحياناً المذبح الجنائزي من حيث الشكل، لكن يختلف عنه من حيث الوظيفة والبنية. فالنصب المدفني يكون مصمماً، أي غير مجوّف، ولا يُستخدم لتقديم القرابين، بينما تُصمّم المذابح لتحتوي على جرة جنائزية، وتُقام فوقها طقوس تقديم الأضاحي، كما هو الحال في التقاليد القرطاجية القديمة.

وجود هذه الأنصاب في مواقع مثل مادور يعكس استمرارية التأثيرات الثقافية القديمة، وتعدّد الرموز الجنائزية في العالم الروماني وشمال إفريقيا.

2.8. شكل النصب:

يمكن أن يكون النصب المدفني حجرًا بسيطًا، أو يُشكّل على هيئة رأس إنسان، أو يأخذ شكل مسلة. وقد يكون مجرد علامة صامتة، أو يحمل كتابات ونقوشًا تمثل مشاهد دينية أو جنائزية، وتوثّق جوانب من حياة الشخص المدفون، مثل اسمه، لقبه، مكانته الاجتماعية، أو تفاصيل من حياته اليومية.

تعكس هذه النقوش جانبًا هامًا من العادات والمعتقدات، فهي ليست فقط وسيلة للتأريخ، بل أيضًا امتداد رمزي للهوية والذاكرة. كما أن تنوع أشكال هذه الأنصاب يُبرز مدى التأثير المتبادل بين الثقافات القديمة، ويظهر غنى الطقوس الجنائزية الرومانية في شمال إفريقيا (B. Fernand; 1954; P88).

ورغم مرور القرون، لا يزال هذا النوع من النصب مستخدمًا إلى اليوم في أغلب أنحاء العالم، مما يدل على استمرارية تقليد رمزي عريق، يجمع بين الدفن، التوثيق، والاحتفاء بذكرى الميت.

3.8. أقسام النصب:

تنقسم الأنصاب إلى ثلاث مجموعات رئيسية بحسب محتواها ووظيفتها:

- **الأنصاب الجنائزية:** وهي الأكثر شيوعًا، وتُوضع لتحديد القبور. تحمل كتابات جنائزية تُخلّد اسم الميت، نسبه، مكانته، وأحيانًا مهنة أو صفات شخصية. وقد تتضمن أيضًا أدعية أو صيغًا دينية تعكس المعتقدات السائدة حول الموت وما بعده.
- **الأنصاب النذرية:** وتُقدّم كهبة أو نذر للإله أو الآلهة، تعبيرًا عن شكر أو رجاء. تحمل هذه الأنصاب عادة نصوصًا دينية، وقد تُزيّن برموز طقسية، وتُوضع في المعابد أو الأماكن المقدسة.
- **أنصاب بلا نقوش أو رموز:** لا تحتوي هذه المجموعة على كتابات جنائزية أو مشاهد مرئية، وقد تكون مجرد حجارة مصقولة أُقيمت كعلامة بسيطة. وجودها يدل على وظائف غير توثيقية، ربما رمزية أو وظيفية بحتة، وربما تعود لفترات لم تكن فيها النقوش شائعة أو ضرورية.

هذا التصنيف يساعد على فهم تعددية الوظائف الرمزية والاجتماعية التي كانت تؤديها الأنصاب في الحياة الدينية والجنائزية للرومان وفي شمال إفريقيا القديمة خصوصًا.

4.8. الأنصاب التي وجدت بمادور:

بلغ عدد الأنصاب التي عُثِر عليها في موقع مادور 277 نصبًا. أغلب هذه الأنصاب كانت تتّسم بقمة حادة، وهو الشكل الأكثر شيوعًا في المنطقة، بينما كان عدد الأنصاب ذات القمة المستديرة قليلًا نسبيًا.

يتراوح ارتفاع هذه الأنصاب ما بين 1.50 متر و2 متر، ما يدل على تنوع في الأحجام واختلاف في مكانة الأشخاص الذين نُصبت لهم، كما قد يعكس التغير في الأسلوب المعماري والجنائزي عبر الزمن. هذه المعطيات تبرز أهمية هذه الشواهد في دراسة البنية الاجتماعية والعقائدية للمجتمع الروماني المحلي.

حملت أغلب الأنصاب الجنائزية التي عُثر عليها بمادور إهداءات موجهة إلى أرواح الآلهة المقدسة، تُنقش عادة في الجزء العلوي للنصب، وتعلو نصًا جنائزيًا يُخلّد هوية الميت ومكانته.

غالبًا ما زُيّنت هذه الأنصاب برموز دينية وفلكية تعبّر عن المعتقدات المرتبطة بالموت والخلود. من بين أبرز هذه الرموز نلاحظ الهلال الذي توضع أطرافه نحو الأعلى، قرص الشمس، الوردات، الزهيرات، وأكاليل متنوعة، إضافة إلى رموز نباتية أخرى ترمز غالبًا للحياة أو الاستمرارية.

أما التمثيل البشري فكان نادرًا، وعند وجوده يُكتفى غالبًا بالتصوير النصفى للشخص، أو يُمثّل بشكل رمزي، وهو ما يعكس تحفظًا في تحسيد الأفراد، أو اقتصار هذه التقنية على فئات اجتماعية معينة. هذا الأسلوب في الزخرفة يكشف أبعادًا روحية وثقافية مهمة عن المجتمع الروماني في مادور ومحيطه (بورحلي إبراهيم، 2010/2009، ص92).

من بين الأنصاب التي عُثر عليها بكثرة في موقع مادور، يبرز نصب الإله ماركوريوس الإفريقي، الذي حظي بمكانة خاصة داخل المستعمرة الرومانية. يتكرّر ظهوره في عدد كبير من الأنصاب، مما يدل على شيوع عبادته وتقديسه لدى سكان مادور خلال الفترة الرومانية.

يظهر ماركوريوس في هذه الأنصاب غالبًا بهيئة مميزة، سواء عبر نقوش رمزية تمثله، أو من خلال ذكره في النصوص النذرية والجنائزية، مما يؤكد ارتباطه بالعالمين الديني واليومي لدى السكان. ويبدو أن لهذا الإله وظائف متعددة، منها ما يرتبط بالحماية والسفر وربما بالحياة ما بعد الموت، وهي جوانب جعلت منه شخصية روحية قريبة من الناس، لا سيما في مجتمع متأثر بالمعتقدات المحلية والرومانية في آنٍ واحد.

هذا الحضور المكثف لماركوريوس يُعد مؤشرًا هامًا على التفاعل الثقافي والديني في شمال إفريقيا، ويُظهر كيف تبنى السكان المحليون رموزًا رومانية ومنحوها خصوصية محلية.

خاتمة:

في هذا المقال تناولنا بالدراسة المعالم الجنائزية التي تعود إلى الفترة الرومانية بمدينة مادور، باعتبارها شواهد أثرية ذات أهمية كبيرة، لا من حيث قيمتها التاريخية والمعمارية فحسب، بل لكونها تكشف جانبًا مهمًا من الحياة الاجتماعية للمجتمع القديم، يتمثل في الممارسات الجنائزية ومكانة الموتى داخل الثقافة الرومانية.

اتضح من خلال المعطيات أن هذه المعالم كانت منتشرة بشكل واسع في مختلف المقاطعات الرومانية، خاصة في مقاطعة إفريقيا البروقصلية التي عُرفت بثرائها الأثري، وكانت مدينة مادور في قلب هذا الثراء، حيث شكّلت إحدى أهم مراكز تجمع المعالم الجنائزية، والتي تراوحت بين البسيطة مثل الصناديق الحجرية والأنصاب، والمعقدة مثل الأضرحة ذات التصميم المعمارية المتقنة.

تميّزت هذه المعالم بتنوعها من حيث الشكل والبناء والزخرفة، إذ نجد نماذج تعكس تفاوتًا في المكانة الاجتماعية للمتوفى. كما استُخدمت في بنائها أنواع مختلفة من الحجارة، أبرزها الكلس الصلب بألوانه الأبيض والرمادي، بالإضافة إلى حجارة الفليس والرخام التي استُعملت أحيانًا في تغليف الواجهات. ولإنجاز النحت النهائي، استُعملت أدوات متنوعة كالشفرات والمناشير المساء والمسننة، ما يدل على درجة عالية من الحرفية في تنفيذ هذه المعالم.

وفي الختام، يمكن القول إن المجتمع الروماني، خاصة طبقاته الثرية والنخبة، أولى اهتمامًا بالغًا بالمعالم الجنائزية، وجعل منها امتدادًا لهيبة المتوفى ومكانته داخل الجماعة. وتشكل هذه الشواهد اليوم مصدرًا أساسيًا لفهم البعد الأنثروبولوجي للموت والدفن في الحضارة الرومانية بشمال إفريقيا

- الإحالات والمراجع :

- إبراهيم بورحلي (2010/2009)، مستعمرة مادوروس وإقليمها الترابي، جامعة الجزائر 02، بوزريعة: أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار القديمة.
- فريدة عمروس (2010/2009)، الأضرحة الجنائزية الرومانية بالجزائر، دراسة معمارية وفنية، جامعة الجزائر 02، بوزريعة: أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار القديمة.
- Bulletin de Correspondance Afrique (1983), Fascicule VI: Novembre – Décembre, 1892, Alger.
- A. Robert (1899), Madaure, Recueil des Notices et Mémoires de Société Archéologique de Constantine Bulltin Archéologique du Comité de Travaux Historique et Scientifique.
- B. Fernand (1954), Sarcophages Paléochrétiens d'Arles et de Marseille: Fouilles et Monuments Archéologiques en France Métropolitaine, Paris, Centre National de la Recherche Scientifique, Coll. «Suppléments à Gallia» (no V).
- C. Lepelley (1981), Les Cites de L'Afrique Romaine au Bas-Empire, Tome 2, Paris: Etudes Augustiennes.
- Duvivier Recherches et Notes sur une Pertion de L'Algérie au sud de Guelma depuis la frontière de Tunis jusqu'aux monts Compis, Paris, 1841.
- F. Cumont (1942), Académie des Inscriptions & Belles-Lettres, Paris: Recherches sur le Symbolisme Funéraire des Romains.
- M. Chabassiere (1866), Recherches a Thubursicum Numidarum, Madauri et Tipaza in R.S.A.C, N°10.
- R. Turcan (1999), Messages D'outre-tombe: l'iconographie des Sarcophages Romains, Paris: De Boccard, Collection De l'Archéologie à l'Histoire.
- St. Gsell (1938), Les Monuments Antiques de l'Algérie, T-II.
- St. Gsell et Joly Charles Albert (1922), Khamissa, M'Daourouch, Announa: Fouilles executées par le service de Monumnts Historiques de l'Algerie, Alger, Paris Tone II: M'Dourouch.